

وليمة لأكل لحوم البشر

العبثي في كتاب نقد الفكر اليومي. فهم قد تعالوا على الجرح الذي لا يندمل، حتى لا يصبح الاستثناء قاعدة تحكّم المستقبل.

إنّ مَسَلَّ الذي يدّعي امتلاك الحقيقة كاملةً كمثّل الذي يدقّ مسماراً في الهواء - بل لعله أن يكون الجاهل الوحيد على هذه البسيطة. إذ كيف لعامل أن يتقبّل منطق النظرة الأحادية الجانب إلى الحقيقة، في عالم يحوي مليارات من البشر المختلفين دينياً وتاريخياً ولوناً وعرقاً وظروفاً ومعاشاً وخلقاً وأهواءً ومصالحاً؟ أفلا تظننّ يا مَنْ تحتكر الحقيقة وتصادرها، أعلمانياً كنت أم مؤمناً ملتزماً، أنّ كلّ فرد من هؤلاء البشر يملك حقيقةً مطلقةً في نسبيتها، فإذا ما تبدلت الظروف تغيّرت الحقيقة؟ ولتوضيح هذه الفكرة، دعونا نضرب مثالين تدليلاً على نسبة الحقيقة:

١ - إنّ وزن الجسم - أي علاقته بجاذبية الأرض - يتغير كلما ابتعدنا عن مركز الأرض إلى القطبين، أو علّونا عن سطح الأرض، حتى يصبح على سطح القمر مثلاً سدس وزنه الفعلي على الأرض.

٢ - في معرض الردّ

على سؤال عن الزواج المدني، في برنامج «كلام الناس» على شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال (LBC) أجاب السيد محمد حسين فضل الله أنّ هذا الزواج شرعيّ بمنظور العلماني، وإنّ كان بحسب الشريعة الإسلامية غير شرعيّ بل إنه فعل زنى (بمعنى المعاني).

فإذا كانت سيرورة الطبيعة وصيرورتها تقوم على التناقض، فما بالك بالبشر الذين تحركهم رؤى فكرية ومواقف اجتماعية متناقضة بل ومتناحرة؟

الكتابة بين فكّي التماسح السلطوي

وبعد سبعة عشر عاماً على إصدار رواية وليمة لأعشاب البحر للكاتب العربي السوري حيدر حيدر، عمدت وزارة الثقافة المصرية إلى طبعها من جديد. وهذا ما أثار ثائرة صحيفة الشعب ذات التوجّه الإسلامي، فكفّرت الكاتب والناشرين، وتظاهر طلاب الأزهر، فذكّرنا من جديد بقضية نجيب محفوظ ونصر حامد أبي زيد ومارسيل خليفة وغيرهم.

ردّ الفعل هذا يطرح علينا بالحاح تحديد ماهية الكتابة. فإذا كانت الثقافة معرفةً وتحليلاً ونقداً وتجاوزاً، فالكتابة رهانٌ كبير وتحدٍّ أكبر للذات والآخر. بل إنّها حرب مفتوحة أبداً على احتمالات الإخفاق والنجاح. وللكتابة - كالحرب - منطقتها وأدواتها وساحتها وأثارها. لكنها، بخلاف الحرب، لا تفقد صدقيتها ومشروعيتها ما دامت تستمد من الحياة موضوعاتها، مشكّلةً مع هذه الحياة علاقة جدلية قائمة على التأثير والتأثير. ويقدر ما تنتقل الكتابة، بطرحها الإشكالات والالتباسات، من الانفعال إلى الفعل، تصبح تحريضيةً تعليميةً هادفة. وبعبارة أدقّ، فإنّ المراد للكتابة أن تقلّب مقولة «في البدء كان الفعل ثم جاءت الكلمة». فلا تعود مؤرّخةً محلّلةً للخبر أو الحدث، بل ترقى إلى مستوى صنع الحدث والفعل المستقبلي.

لا أتوخى هنا إلا أن أضع القارئ الكريم أمام مسؤوليته حيال الموضوعات الأكثر حساسيةً والتصاقاً بالقضايا الإنسانية الكبرى. كما أطلب منه وأطالبه، سواء اتفق معي أم اختلف، أن يعمّم احتراماً شعار «حرية التساؤل والسؤال» في عصر أصبح فيه التهافت سيّد الموقف، وأخذ الابتذال يغشى العيون والألباب، وبيات النفاذ

إلى كنه الأمور اغتراباً وخروجاً عن المؤلف الموسوم بالاجترار وبذبح المثقف بين فكّي التمساح السلطويّ الذي يتخفى دائماً خلف الحالة الأصوليّة.

غير أنّ هذه الحالة هي بدورها ضحيّة لفقدانها لمشروع عصريّ، وهذا ما يحرمها الإمساك بزمام السلطة السياسيّة، وتحمّل - قصداً - تبعات الأزمات السياسيّة والاقتصاديّة الدوريّة الناجمة عن فساد الطاقم وتعفّفه وتشبّثه بكرسيّه. وعليه فما الذي يَمْنَع أية وِزارةٍ للثقافة بوصفها أداة القمع الأرقى للمثقف النقديّ، وشاهد الزور الأحرص على تستير عورة نظامه، أن تتعمّد إعادة نشر روايةٍ يثار حولها جدلٌ عنيفٌ، يُترجم عنفاً وعنفاً مضاداً، لتضليل الرأي العامّ عن الحقيقة، وتغيير وجهة الصراع الاجتماعيّ وإدخاله في نفقٍ مظلم يوصل إلى حالة لا أفق لها، ويؤدي من ثمّ خدمةً جليلاً للمشرق أوسطيّة والتطبيع السوسيو - ثقافيّ؟

هذا الكلام لا يبرّر ردة فعل طلاب الأزهر وصحيفة الشعب الانفعاليّة واللاعصريّة، لكنّه يؤكّد مسلمة مفادها أنّ السلطة القائمة، التي تُفقد يومياً مسوغات استمراريتها، تحتاج إلى كبش فداء يُقدّم قرباناً لتغطية فظاعة السائد المستعصي على الاستئصال. ولا غرابة في حال كهذه أن تصدر التنظيمات الإسلاميّة المواجهة، لكونها تملك رؤيةً تجهد من خلالها في إسقاط ماضٍ على حاضرٍ مغايرٍ أصلاً وتفصيلاً.

أفكار الرواية «الخطرة»

رواية إذا ما اكتفت بإبراز الإيجابيات أو ما يُعتقد القارئ أنّه كذلك؟ وإذا

كان الناس متفقين حول الدّين والعائلة والدولة والحرية والعدالة والتاريخ والجنس... إلخ، فما جدوى تسطير المقالات والروايات والآثار الفقهيّة والفكريّة؟ وفي هذا السياق، لماذا نعتبر المتصوّف أو الزاهد في الدنيا أو المتزمت في تفسير الأمور - كلّ الأمور - بطلاً، ونشتم ونحقّر السوقيّ الذي ضاق صدره بالقيم الجوفاء وانساق وراء ملذاته؟... علماً أنّ الاثنين ينتميان إلى مجتمع واحد، ويعانيان ظروفاً مشتركة، ويكابدان شظف العيش وصعوبةً تحصيل اللقمة، فهما - بذلك - قد عبّرا عن أزمة واحدة، وهربا من مواجهة مجتمع مسخ يفرز مواطنين مسوخاً ولا يحقّق العدالة الاجتماعيّة.

أضف إلى ذلك، أنّ نقد الدّين والتاريخ والتراث والجنس والكتب هو مادة حديث يوميّ عند العامّة والخاصّة. فلماذا عندما يتحوّل هذا الحديث إلى عملٍ فكريّ أو أدبيّ يعبّر عن فظاعة الواقع تقوم الدنيا ولا تقعد؟

٣ - وصّف الملحد اللّه في الرواية بأنّه «فنانٌ فاشلٌ»، وهو ما انتقدته جريدة الشعب. ولكنّ كيف يصفّ الملحد اللّه بأنّه فنانٌ فاشلٌ، وهو الذي يُنكر وجوده أصلاً؟ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإذا كان الملحد كافرأ أو مرتدأ أو لديه شكوكٌ وأسئلة حول الخلق ونبوة الأنبياء، فهل يُعقل انطلاقاً من طبيعة شخصيّته أن ينعت اللّه بالحق والرحمة والعدل؟!.

ولندخل في مناقشةٍ أخطر ما ورد في الرواية (وفق جريدة الشعب المصريّة)... بعد التأكيد على أنّ الكاتب لا يدعيّ إلحاداً، بل هو (في تصارحه الصحفيّة) مسلم مستنيرٌ يقول بضرورة الحوار والإقناع بالتي هي أحسن. ثم لماذا نعتبر - مسبقاً - وقصداً - أنّ شخصيّة الملحد في الرواية تعبّر عن وجهة نظر الكاتب؟

١ - تأخذ جريدة الشعب على حيدر حيدر نعتّه نبيّ الإسلام بـ «المزواج». ولكنّ بعيداً عن الإساءة الأخلاقيّة (وهي غير مقصودة مطلقاً)، وبصرف النظر عن موقف الكاتب من هذا الموضوع، فإنّه يقرّر واقعاً ماضياً. وكلمة «مزواج» تعني لغويّاً الكثير التزوج، وهي صفةٌ مبالغة على وزن «مِفْعَال» كما أنّ «المقدّم» هو الكثير الإقدام. وربّ مصطاد في الماء العكر يُصرّ على إلصاق تهمة الإساءة إلى النبيّ بالكاتب، فنسارع بالردّ عليه متسائلين: هل يمكن أن تسمي التوراة إلى نبيّها سليمان بن داوود الموصوف بـ «الحكيم»، عندما تتحدّث عن أزواجه؟^(١)

٢ - وردت في الرواية عباراتٌ تُحدش - بنظر معارضيهيها - الذوق العامّ، وتنافي الحشمة والأهداف والتقاليد. فقد جاء على لسان ممرّضة قولها: «أعمالٌ حرةٌ تحت السّرة» (ص ١٣٦)، وعلى لسان طبيبة قولها: «إمّا الإعارة أو الدّعارة» (ص ١٤١). ولكنّ ما هو دور الروائيّ؟ وما هي القيمة الأدبيّة لأيّة

١ - الكتاب المقدّس - العهد القديم، دار المشرق، بيروت، طبعة ١٩٨٩، سِفْر الملوك الأول، صفحة ٦٥١ في باب «نساء سليمان»: «وأحبّ الملك سليمان نساءً غربيّة كثيرةً مع ابنة فرعون، من المزابيات والعَمُونِيّات والأدوميّات... من الأمم التي قال الربُّ لبني إسرائيل في شأنها: لا تذهبوا إليهم ولا يذهبوا إليكم، فإنهم يستميلون قلوبكم إلى اتباع الهتهم... وكان له سبع منة زوجة وثلاث منة سُرّيّة (جارية)... وتبع سليمان عشتاروت إلهة الصيدونيّين... فغضب الربُّ على سليمان، لأنّ قلبه مال عن الربِّ...». ويُستدلّ من هذا النصّ أنّ ربّ اليهود لم يؤنّب سليمان على كثرة تزوّجه، بل على ميله عن الربّ.

حوار بين المؤمن والملحد

وهنا أستوقف القارئ الكريم وأقول لطالب الأزهر العزيم، أخي في المصاب والمصير: «تعالَ ننسَ انفعالية اللحظة، ولنُقِمَ حواراً متخيلاً بسيطاً وهادئاً بين مؤمنٍ وملحدٍ حول أهمية دور النبي في تاريخ البشرية».

– المؤمن: إنَّ اللهَ وَصَّحَ، بمشيئته أو بعلمه الإلهي أو الغيبي، صفاتٍ في النبي توهِّله لنشر الدين الحنيف على العالمين. فتسلَّح النبي ببيانه وشريعته وجيشه وإيمان أنصاره، وتعالى على اتهامه بالمجنون أو الشاعر أو الساحر، فعمم نصر الله والفتح، وبسَطَ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

– الملحد: أنتَ تفرِّقُ بأنَّ النبي لا يملك شيئاً من أمره؛ وهذا ما أكده القرآن منذ البداية عندما خاطب الوحي (جبرائيل) النبي قائلاً: ﴿يا أيُّها المدثرُ قمْ فَانذِرْ﴾، وحين وصف النبي بأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عن الهوى﴾ وأنه: ﴿إن هو إلا وحيُّ يُوحى﴾. والحق أنَّ النبي لظروف ذاتية (كالعوز، واليتم المبكر، والانتصار للمقهورين، واستشعار الخلل الاجتماعي في الملا المكي، ولنزعة إنسانية إلى العدالة الاجتماعية، وبهدف الاتصال ببعض الأحناف الكبار^(١)) والأطلاع على تراث بعضهم الآخر، ولظروف أخرى موضوعية (كاستفحال ظاهرة الربا، وقهر العبيد، وواد البنات، والفساد

الأخلاقيّ المستشري،

وهيجان المجتمع المكّي

بالتناقضات، والصراع

المحتم بين بني هاشم – أهل النبي –

ذوي السمعة الطيبة وبين أمية ذوي

النفوذ والجاه والقوافل التجارية

المنتقلة بين الشام واليمن مروراً

بمكة... أقول [والكلام للملحد] إنَّه

لظروف ذاتية وموضوعية قاد النبي

هذا الحدث الجلل الذي بدل وجهه

الخارطة السياسية والجغرافية للعالم

القديم، وأثار على مدى أربعة عشر

قرناً الجدال والسؤال، وسطرت حوله

ملايين الكتب، واجتذب المستشرقين؛

ويشرف المسلمون أن يقول الدكتور

مايكل هارت بالنبي رأياً سديداً^(٢).

مناقشة المشروع – الاقتراح التالي

وإغناته:

١ – إنشاء هيئة عليا للثقافة، تكون

المرجعية الصالحة في بت النزاعات

الناشئة مع الجهات المعنية (من وزارة

الثقافة إلى الأمن العام والقضاء وغير

ذلك...)، وفي تغطية المادة موضوع

الخلافاً إعلامياً... وانتخاب مندوب

لهذه الهيئة في كل قطر عربي.

٢ – العمل الدائب على حتّ الدول

العربية على إصدار قانون «حصانة

المثقف».

٣ – التسليم بمبدأ «حق

الاختلاف»، والاعتراف بالآخر

المختلف.

٤ – إحياء يوم «المثقف العربي»،

واقامة الندوات، وتسطير

المقالات في هذه المناسبة.

٥ – تحفيز الإبداع عبر

جائزة معنوية سنوية (وسام استحقاق

من رتبة «فارس عربي» مثلاً) أو مادية

إذا تيسر ذلك.

٦ – مطالبة المعنيين بتأمين حيز

أوسع للمثقف في وسائل الإعلام

الرسمية المقروءة

والمسموعة والمرئية.

ولترفع هذه الورشة

الفكرية المرجوة شعاعاً مستمداً من

شعر خليل حاوي: «من كهوف

الشرق، من مستنقع الشرق، إلى

شرق جديد».

شتورة (لبنان)

من أنصف النبي أكثر؟

ويامكان المرء أن يتخيّل حواراتٍ

أطول ما بين المؤمن والملحد. ولكن لو

تصوّرنا حوارهما السابق وحده

فلنتساءل: ثرى من أنصف النبي

أكثر؟ فليجتهد القارئ الكريم في

الاجابة عن السؤال!

اقتراحات

وكي لا يكون المثقف طبقاً شهياً

على مائدة الاحتمالات، ولا تصبح

الثقافة وليمة للطحالب وأكلة لحوم

البشر فوق أوان من القهر والاستلاب،

أدعو معشر المثقفين العرب إلى تبني

صيغةٍ ما للعمل الجماعي أو إلى

١ – الأحناف الكبار هم: زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن جحش، وأميه بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة الإيادي، والراهب بحيرى، وورقة بن نوفل الكاهن النصراني الذي كان يترهّد في غار حراء في الأشهر الحرم ويقال – حسب رواية الطبري واليعقوبي وفي السيرة الهشامية – إنّه هو من بشرّ بالنبي، حتى إن خديجة بنت خويلد – ابنة عمه – قصدته مسرعةً عندما ظهر الوحي على النبي وقال له: ﴿يا أيُّها المدثرُ قمْ فَانذِرْ﴾ فأخذ يرتجف، وأبلغ أمره إلى خديجة. وأكثر من ذلك، فقد كاد النبي عند موت ورقة أن يتردى من شواهد الجبال، وفتر الوحي عاماً ونصف العام لغيابه (تاريخ الطبري)

٢ – الدكتور مايكل هارت أميركي الجنسية والمولد نال على التوالي: إجازة في الرياضيات (عام ١٩٥٢)، وإجازة في القانون عام (١٩٥٨)، وماجستيراً في العلوم (عام ١٩٦٩)، ودكتوراه في الفلك (عام ١٩٧٢). وهو في كتابه المائة الأوائل (دار قتيبة، الطبعة السادسة، عام ١٩٨٧)، يصنّف النبي محمداً في رأس القائمة، يليه اسحق نيوتن. ويعلّل اختياره هذا على غلاف الكتاب بالقول: «إنّ اختياري محمداً ليكون الأوّل في قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القراء، ولكنّه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح على المستويين الديني والديني».